المزج اللفوي كسلوك لفوي للإنسان المغربي المفلوب[1]

محمود الذوادي*

* حصل على الدكتوراه في الاجتماع ـ جامعة مونتريال ـ كندا
استاذ مساعد ، قسم الاجتماع ـ جامعة الملك سعود / الرياض

الملخص

هذه الدراسة هي محاولة تنظيرية لظاهرة المزج اللغوي « الفرانكو أراب » بمجتمعات المغرب العربي المعاصرة . فهذا البحث يَعتبر الفرانكو أراب سلوكا لغويا ذا علاقة متينة بعامل الاستعمار الفرنسي الذي سيطر على هذه الشعوب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والدراسات الغربية الحديثة لظاهرة المزج اللغوي لا تكاد تشير إلى تأثر الفرانكو أراب بعامل علاقة الغالب بالمغلوب، ومن ثمّ فليس بكاف مثلا أن ترجع انتشار ظاهرة الفرانكو أراب بين معظم فئات المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي المعاصرة إلى مجرد احتكاكها بالفرنسيين في العصر الحديث أو مجرد معرفة هذه الفئات للغة الفرنسية معرفة كاملة أوجزئية . فإتقان الشخص للغتين أو أكثر لا يؤدي بالضرورة إلى حتمية المزج ومن هنا تأتي في نظرنا أهمية تدخل عامل الشعور بالنقص لدى «المغربي» المغلوب إزاء الطرف الفرنسي الغالب ليصبح هذا الواقع مصدراً ودافعاً نفسياً حساسا في تشجيع «المغلوب» على تقليد الغالب بما في ذلك لغويا حتى وان كانت لغة «المغلوب» قادرة تماماً على التعبير عما تختلج به نفسه .

ومن منطلق أهمية علاقة الغالب والمغلوب (طبيعة ميزان القوى بين الطرفين) هذه كمرجع أساسي لتفسير ظاهرة «الفرانكو أراب» استطعنا أن نجد أيضا تفسيراً معقولا لملاحظة ظاهرة لغوية فرعية وهي ميل نساء وفتيات مجتمعات المغرب العربي ، خاصة المثقفات والمتعلمات إلى مزج لغتهن العربية العامية بكلمات وعبارات فرنسية أكثر من زملائهن المثقفين والمتعلمين ، فالمرأة في هذه المجتمعات تشكو من نوعين من الشعور بالنقص :

١) شعور بالنقص أمام الطرف الفرنسي (المرأة الفرنسية على الخصوص) .
٢) شعور بالنقص كمرأة في مجتمعات يتمتع فيها الرجل بنصيب الأسد من الامتيازات الاجتماعية أي بالسيطرة على مقاليد الأمور .

وهكذا فانتشار الفرانكو أراب في كل من الجزائر وتونس والمغرب هي ملمح من ملامح ما أطلقنا عليه بظاهرة التخلف الأخر : التخلف النفسي والثقافي الذي لا يقتصر على مجتمعات المغرب العربي بل يتعداه إلى بقية كثيرة من مجتمعات العالم الثالث المعاصرة .

أولا : تعريف ظاهرة الدراسة وهدفها ومنهجها

يقصد بمصطلح الفرانكو أراب Le Franco - Arabe مزج العربية العامية بالفرنسية أثناء الحديث[٢] (Grosjean, 1982 : 145) على الخصوص . وهي ظاهرة اجتماعية لغوية تتصف بها مجتمعات المغرب العربي المعاصرة الثلاثة : الجزائر وتونس والمغرب .

ويهدف هذا البحث إلى توضيح أن ظاهرة الفرانكو أراب هذه لا يمكن إعطاؤ ها تفسيراً وافياً دون النظر إليها كعرض Symptom من أعراض تأثير عامل الاستعمار الفرنسي بهذه المجتمعات في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . فالنظريات الغربية : (Downes, 1984 : 61-62, Grosjean 1982 : 150) المهتمة بدراسة ظواهر المزج اللغوي لا ينبغي الاعتماد عليها في فهم جذور ظاهرة الفرانكو أراب (الذوادي : ١٩٨٤ و Les racines du franco - arabe Féminin) وذلك لأن هذه النظريات تهمل كلية متغير الاستعمار (علاقة الغالب بالمغلوب) كمؤثر حاسم في الاندفاع إلى الخلط اللغوي عند الطرف المهيمن عليه . وسيكون منهجنا لهذه الدراسة وصفا تحليليا ذا منظور Perspective تاريخي اجتماعي نفسي . أي أن فروضنا ومناقشتنا لمختلف جوانب ظاهرة الفرانكوأراب تعتمد على الملاحظات الميدانية والتحليل التاريخي الاجتماعي النفسي لملامح ظاهرة الدراسة بمجتمعات المغرب العربي المعاصرة .

ثانيا : بعض المعطيات عن طبيعة المزج اللغوي

يميز الباحثون في ميدان اللغة واللسانيات نوعين(Grosjean, 1982 : 146) من المزج اللغوي أثناء الحديث :

١) وهو أن يلجأ المرء وهو يتحدث بلغة ما إلى استعمال لغة ثانية (في صورة كلمة أو جملة قصيرة أو طويلة) مستعملا لها كما تتطلب ذلك قواعدها ، ويسمى هذا الصنف من المزج اللغوي بالإنجليزية Code switching .

٢) أما الصنف الثاني فيدعى بـ « الإعارة » borrowing وهو أن يستعير الفرد أثناء حديثه كلمة أو عبارة قصيرة من لغة ثانية ويكيفها من حيث نطقها وتركيبها مع اللغة التي يتحدثها . ولنضرب مثالين على ذلك من المغرب العربي :

مثال على الصنف الاول : أنا ماشي (مغادر ، مسافر)Le 25 aoot أي في ٢٥ أوت (أغسطس) .

مثال على الصنف الثاني : الكرهبة (السيارة) ماتفنكسيونيش : La voiture ne foncnonne pas أي (لا تشتغل : معطلة) .

وتشمل الفرانكو أراب في مجتمعات المغرب العربي هذين الصنفين . على أن الصنف الأول أكثر

انتشـارا بين مزدوجي اللغـة المتعلمـين . أمـا أسباب الميل إلى المزج اللغوي وفقا للدراسات والكتابات الغـربيـة في هذا الميـدان فهي متعددة ونختصر ذكر أهمها في الجدول التالي : (Downes, 1984 : 62-63, Grosjean, 1982 : 150) .

بعض دوافـع المـزج اللغـوي

١ ـ سد حاجة لغوية لكلمة أو جملة قصيرة أو طويلة .
٢ ـ عند اقتطاف كلام الغير .
٣ ـ لتحديد العنوان .
٤ ـ للتنبيه وللتأكيد على تضامن الجماعة وذاتيتها .
٥ ـ للتعبير عن الغضب أو السرية .
٦ ـ بقصد ان لا يفهم أحد الأفراد الحاضرين الحديث .
٧ ـ بقصد رفع مكانة المتحدث ، والإضافة إلى سلطته، وبقصد إظهار معرفته وخبرته .
٨ ـ لتطلب حالة المتحدث لذلك .

فأكثر هذه الأسباب قربا لتأثير عامل الاستعمار على المزج اللغوي هو رقم (٧) ومع ذلك فليس هنـاك ما يقنعنـا بأن عامـل الاستعـمار مقصـود في السبب (٧) . فالمطالع (Downes, 1984 : 61-71, Grosjean, 1982 : 145-146) لتفـاصيـل منـاقشـات الدراسات الغربية حول الخلط اللغوي لا يجد ذكراً لمتغير الاستعمار كأحد المؤثرات الهامة في هذا الصدد .

ثالثا : أصناف المازجين بالمغرب العربي

ومن المـلاحظـة الميـدانيـة ، يمكن القول إن ظاهرة الفرانكو أراب منتشرة بين كل فئات المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي . ويمكن ذكر ثلاثة أنواع من المازجين :

١) مزدوجـو اللسـان (العـامية والفرنسية) : وهم أساسا هؤلاء الأفراد الذين تعلموا الفرنسية سواء في المدرسة أو خارجها وأصبح بعضهم قادرا على استعمالها في الحديث فقط بينما البعض الآخر وخاصة المتعلمون في المدارس الذين اتقنوا اللغة الفرنسية حديثا، قراءة وكتابة وتحريراً .

٢) يمثل هذا الصنف الأفراد ذوي التكوين المعرب كالزيتونيين بتونس والقير ويين بالمغرب الأقصى . ومع ذلك فهم لا يستثنون من مزج بعض المفردات وحتى الجمل الفرنسية بعاميتهم وذلك لاندماج هذه الكلمات والعبارات مع لغة الشارع اندماجا لا يكاد يميزها عن غيرها من مفردات العامية لغة الحديث العام Basis language .

٣) المـازجـون الأميّـون : إن تسرب الكلمات الفرنسية إلى لغة الشمال الافريقي مسّت ـ كما قلنا ـ كل الفئـات الأجتـماعيـة بمن فيهم الأميّـون . فكلمـة الكميـون (الشاحنة)le camion هي الكلمة العامية التي تستعملها في الغالب هذه الأصناف الثلاثة من المازجين في **تونس** مثلا . ومن **المتوقع** ان يكـون الصنف الأول من المـازجـين هو الـذي تنتشر فيه فعلا ظاهرة الفرانكوأراب بدرجة تفوق استعـمال الصنفـين الآخـرين لها **بكثـير** . وذلك **أولا** لمعرفتهم للفرنسية **وثانيا** لوجود عوامل أخرى خاصة بهم تأتي مناقشتها فيما بعد . ومما يميز صنف المازجين (الأميّين) هو كثرة استعمالهم للكلمات الفرنسية بطريق **الإعارة** المشار إليها سابقا .

رابعا : ملاحظات أساسية حول ظاهرة الفرانكو أراب

يمكن تسجيـل **ثلاث ملاحظـات** رئيسيـة بخصـوص الفـرانكـوأراب كظـاهـرة لغـوية اجتماعية بمجتمعات المغرب العربي :

١ ـ تمزج كل الفئات الاجتماعية المتعلمة والأمية ـ كما رأينا ـ عامياتها العربية بمفردات وعبارات فرنسية (طبعا بنسب مختلفة) في كل من الجزائر وتونس والمغرب .
٢ ـ تميل الفئات المتعلمة تعلما أكثر (تفرنسا) إلى مزج عاميتها بنصيب أكبر ـ من المعدل الشعبي العام ـ من الكلمات والعبارات الفرنسية .
٣ ـ في مجتمعات المغرب العربي المعاصرة تميل النساء والفتيات المتعلمات والمثقفات على الخصوص إلى خلط عاميتهن العربية بالفرنسية أكثر من مجموعتي (١) و (٢).

فمن هذه الملاحظات الثلاث تنطلق دراستنا لظاهرة الفرانكوأراب . وعند التأمل في هذه الملاحظات يتجلى عامـلان (متغـيران) رئيسيـان ذوا تأثـير على مزج العـاميـة بالفـرنسيـة عند الجزائري والتونسي والمغربي : (١) التعليم والثقافة (المتفرنسان) و (٢) الأنوثة .

ويبدو أن العلاقة بين المتغير (١) وظاهرة الفرانكوأراب علاقة لا غرابة فيها على العموم . أما المتغير (٢) (الأنـوثـة) فهـو الـذي يدعـو ـ لأول وهلة على الأقـل ـ للحيرة والتساؤ ل . ما دخل عامل الجنس الأنثوي في زيادة استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية مع العامية العربية يا ترى ؟ هل هناك أية شرعية ومنطقية لوجود مثل هذه العلاقة ؟

تلك بعض من الأسئلة التي يطمح هذا البحث لمحاولة الإجابة عنها .

خامسا : الفروض كأداة للبحث العلمي

وللتعمق في فهم ظاهرة الفرانكوأراب كسلوك لغوي اجتماعي في مجتمعات المغرب العربي المعاصرة

نود طرح بعض الفـروض . إذ أن هذه الأخـيرة طالمـا تسـاعـد البـاحث على الحصـول على بعض الإجابات والاكتشافات الأكثر دقة أو علمية بخصوص الظاهرة المدروسة . فالفرض كأداة بحث هو في النهـايـة جسـر ضروري بين النظـريـة المـوجودة والبحث الإضافي الذي يمكن أن يؤدي إلى اكتشافات جديـدة تزيـد من معـرفتنـا حول الظـاهرة قيد الدراسة (Hatt, Goode : 1983) ويعرف الفرض «بأنه تعميم مبدئي تظل صحته وصلاحيته موضع اختبار» (زكي ، ١٩٧٨ : ٢٩) .

ومن الشـائـع في العلوم الاجتـماعية الحديثة هو أن يكون فرض (أو فروض) الباحث مستندا على نتائج بحث أو بحوث سابقة أخرى ، اذ أن ذلك يعين على تجمع زاد معرفي اكبر حول نفس الظاهرة ، الذي يؤدي بدوره إلى تعمق وفهم أفضل لها .

لكن مصـادر استنبـاط البـاحث لفـروضه لا تنحصر فقط فيما ذكر أعلاه ، فحدس العالم أو حتى تخمينه (زكي ، ١٩٧٨ : ٢٩) يمكن أن يسمحا له بطرح بعض الفروض حول الظاهرة التي يود فهمها فهـماً أكثـر دقة ومصداقية . وكذلك الشأن بالنسبة لما يسمى بالاستنتاج المنطقي (زكي ، ١٩٧٨ : ٢٩) فهـذا الأخـير يسـاعـد البـاحث الفاحص لملامح ومتغيرات الظاهرة المدروسة على القيام باستنتاجات منطقية حولها تسمح له بطرح بعض الفروض التي تساعد على الغوص في طبيعة الظاهرة .

ويـذهب كل من Goode و Hatt إلى تحديـد أربعـة مصادر أخرى يستوحي منها الباحث بعض فروضها (Hatt, Goode, 1983 : 63) :

(١) ان الثقافة المجتمعية الخاصة التي ينشأ وينمو فيها العلم هي بدون شك مصدر لكثير من فروضه .
(٢) ان العلم (أي علم) هو مصدر في حد ذاته لنشأة الفروض .
(٣) ان المشابهات analoqies طالما تكون مصدرا لبعض الفروض المفيدة .
(٤) ان الفـروض يمكن أن تكـون نتيجـة لتجـربـة وعوامل شخصية ينفرد بها الباحث ويتفاعل معها بطريقته الخاصة .

سادسا : بعض الفروض العاملة لإفراز الفرانكوأراب

إن الفـرض الـرئيسي لدراسة ظاهرة الفرانكوأراب بمجتمعات المغرب العربي هو أن انتشار هذه الظـاهـرة بين مختلف فئـات وطبقـات هذه الشعوب يعود في رأينا إلى حد كبير إلى مركب النقص الذي يشعـر به الإنسـان «المغـربي» إزاء الطـرف الفـرنسي الغـالب . وبعبارة أخرى فإن فرضنا هذا يرى أن ظاهرة الفرانكوأراب تتأثر كثيرا بعلاقة الغالب والمغلوب التي سادت تعامل الطرفين : الفرنسي والشمال الأفريقي منذ القرن التاسع عشر . ومن ثم ففرض أهمية الغالب والمغلوب لا يساعد على تفسير ظاهرة الفرانكوأراب فقط وإنما أيضا على تفسير تصرفات اجتماعية وفردية في نفس هذه المجتمعات كما سوف نرى . والفـرض المثـالي هو ذلـك الـذي يثري العلم بما يولد من مجالات للبحث وفرص جديدة للبحث والاستقصاء [٤]

ولاختبار مدى واقعية فرضنا الرئيسي هذا نطرح أربعة فروض نناقش مدى مصداقيتها في تفسير الفرانكوأراب قبل مناقشة فرضنا الرئيسي . وهذه الفروض هي كالتالي :

١) إن **احتكاك** الطرف الفرنسي بالطرف الجزائري والتونسي والمغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين يؤدي إلى التأثر والتأثير اللغويين : عربي ـ فرنسي (الفرانكوأراب) أو فرنسي ـ عربي (أربوفرانساي L'arabo - Francais)[٥] بين الطرفين .

(٢) إن **معرفة** الجزائريين والتونسيين والمغربيين للفرنسية هو سبب انتشار ظاهرة الفرانكوأراب بين هؤلاء .

(٣) إن **عجز** العاميات العربية بالمغرب العربي على التعبير عن الكلمات والعبارات خاصة تلك التي لها علاقة بالأشياء العصرية هو واقع قاد أهل مجتمعات المغرب العربي المعاصر إلى خلط حديثهم بعبارات وكلمات فرنسية .

(٤) إن **تأثير** ظروف تعلم اللغة (اللغات) الثانية هو عامل حاسم في إفراز ظاهرة الفرانكوأراب بين المغاربة في العصر الحديث .

(٥) إن الفرانكوأراب هو نتيجة **لمركب النقص** عند «المغربي» إزاء الطرف الفرنسي الغالب .

فنحن نفترض أن كل **متغير** في الفروض الخمسة ـ مثل متغير الاحتكاك في الفرض الأول ـ **يمكن** أن يؤدي إلى إفراز ظاهرة الفرانكوأراب ، موضوع هذه الدراسة . ولسبر مصداقية كل واحد منها نناقش كل فرض على حدة فيما يلي :

مناقشة الفرض الأول

ففي عملية الاحتكاك بين الطرف الفرنسي والطرف الشمالي الأفريقي في القرنين التاسع عشر والعشرين على تربة المغرب العربي كانت شعوب الجزائر وتونس والمغرب تمثل **الأغلبية** بينما كان المهاجرون الفرنسيون إلى هذه المجتمعات هم **الأقلية** . وقد ذهب بعض علماء الاجتماع المعاصرين خاصة في الولايات المتحدة إلى القول بأن الأقلية هي التي تنصهر في **الأغلبية** ثقافيا . ومنه جاء مفهوم بوتقة الإنصهار Melting pot . لكن هذا لم يحدث في احتكاك أهل المغرب العربي بالجانب الفرنسي . والدليل على ذلك هو ندرة مزج الأقلية الفرنسية لفرنسيتها بكلمات وعبارات عربية . وبعبارة أخرى فظاهرة الأربوفرانساي L'Arabo-Français **تكاد** تكون غير موجودة البتة بين المستعمرين الفرنسيين .

فتعلم واستعمال لغة الغير وثقافته لا يبدو أنه إذن نتيجة **حتمية** لمجرد وجود فرص احتكاك بين المجموعات والفئات والشعوب الإنسانية ذات اللغات والقيم الثقافية المختلفة .

ومن ثم يمكن القول من جهة إن العوامل الحاسمة في تفسير ظاهرة **الفرانكوأراب** المنتشرة بين سكان مجتمعات المغرب العربي وندرة ظاهرة **الاربوفرانساي** بين المحتلين الفرنسين هناك من جهة ثانية تمثل في عوامل غير عامل **عدد** السكان في حد ذاته .

ولعل الذي يميز الطرفين المتفاعلين هو طبيعة العلاقة التي تربط بينهما . فالفرنسيون كانت لهم السيطرة إلى حد كبير على مقادير هذه الشعوب على المستويات العسكرية والإدارية والاقتصادية والثقافية بصفتهم مستعمرين. فكفة الميزان في هذا الاحتكاك هي إذن لصالح الأقلية الفرنسية . وعلى هذا الأساس جاء عدم تأثر الفرنسيين التأثر الجدير بالذكر لغويا وثقافيا بشعوب المغرب العربي . بينما تأثرت فئات هذه الشعوب المغلوبة (المستعمرة) ـ رغم أغلبيتها السكانية ـ بلغة المستعمر وثقافته . ولا زال هذا التأثر عميقا في هذه المجتمعات بعد أكثر من ربع قرن من استقلالها . ويتماشى هذا الواقع اللغوي الثقافي بالجزائر وتونس والمغرب مع ملاحظة ابن خلدون الشهيرة في كون «ان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده (ابن خلدون : ٣٣٤).

ومن هذه العلاقة : علاقة ميزان القوى بين المستعمر (القوي) والمستعمر (الضعيف) يمكن اعتبار ظاهرة الفرانكوأراب كنتيجة طبيعية منتظرة لمثل هذا النوع من احتكاك الشعوب حيث أن قوى الطرفين بعيدة على أن تكون متساوية (Devos, 1976: 350) .

فاستمرار تفشي هذه الظاهرة في مجتمعات المغرب العربي اليوم لا يمكن أن يعزى فقط إلى طبيعة بطء تغيير العناصر الثقافية للمجتمعات كما يذهب إلى ذلك عالم الاجتماع الأمريكي اجبر ن Ogburn . في مفهوم الهوة الثقافية Culturallag.ففي رأينا لا بد من ربط استمرارية الظاهرة إلى حد كبير باستمرار عدم تساوي القوى بين هذه الشعوب من جهة وفرنسا من جهة اخرى . فميزان القوى لا زال على العموم بيد الجانب الفرنسي . وما دامت تلك هي الحال بين الطرفين (علاقة الغالب بالمغلوب) فمن اللاواقعية أن ينتظر المرء تلاشي ملامح هذه الظاهرة إلى غير رجعة وذلك رغم سياسات الإصلاح اللغوي التي قامت وتقوم بها بكل جدية بعض حكومات هذه الأقطار[٦] .

مناقشة الفرض الثاني

ليس صحيحا قول البعض أن اللجوء إلى المزج اللغوي (عربية بالفرنسية أو عربية بالإنجليزية الخ . .) هو بالضرورة نتيجة حتمية لمعرفة الفرد للغتين أو أكثر ، فمن الوجهة النظرية قد يعرف الشخص أكثر من لغة دون أن يمزج بينها في سلوكه اللغوي .

إن مقارنة التركيبة اللغوية في مجتمعات البلاد الاسكندنافية (النرويج والسويد والدنمارك) المعاصرة بتلك التي تسود في مجتمعات المغرب العربي تكذب قطعا مثل هذا الادعاء . فالفرد السويدي والدنماركي والنرويجي يعرف الإنجليزية كلغة ثانية معرفة تساوي أو تفوق معرفة التونسي والجزائري والمغربي للفرنسية . ومع هذا «فالفرانكوأراب» ظاهرة اجتماعية سائدة في الجزائر وتونس والمغرب بينما ظاهرة مزج الإنجليزية بإحدى لغات هذه المجتمعات الاسكندنافية لا يكاد يكون له وجود فضلا عن تواجدها كظاهرة اجتماعية منتشرة بين كل الفئات .

فأسباب المزج اللغوي أو عدمه في هاتين المجموعتين من المجتمعات ينبغي إذن أن يبحث عنها خارج مجرد معرفة المازج لأكثر من لغة . ويبدو أن عامل ميزان القوى (علاقة القوى بالضعيف) المشار إليه في الفرض الأول عامل ذو ثقل استراتيجي (ليس هو الوحيد طبعا) في تفسير ـ من ناحية ـ ظاهرة

الفرانكوأراب بمجتمعات المغرب العربي ، وغياب ظاهرة مزج اللغات الاسكندنافية بالإنجليزية بمجتمعات شمال أوروبا من ناحية أخرى .

مناقشة الفرض الثالث

إن الخلط الشائع للعربية العامية بالفرنسية بين أهل شمال إفريقيا اليوم لا يقتصر فحسب على المفردات والعبارات التي لا تملكها العامية أو الفصحى . بل يتعداه إلى استعمالات أخرى تملكها **قطعا** كل من الفصحى والعامية . فالأرقام ١ ، ٢ ، ٧ ، ١٠ ، ٢٥ و ١٠٠ ، الخ لا يحتاج فيها «المغربي» إلى اللجوء إلى الفرنسية للتعبير عنها[٧] . ومع هذا فالجزائري والتونسي والمغربي المتعلم تعليماً غربياً خاصة **يفضل دائما استعمال الفرنسية عند تعامله مع الأرقام والتواريخ** . فنادراً مثلا أن يعطيك هذا الصنف «المغربي» ـ بطريقة عفوية ـ رقم هاتفه بالعامية . ويمكن أن يعزى مثل هذا السلوك اللغوي إلى سببين :

(١) ان الأرقام تقترن ـ خاصة ـ في ذهن المتعلم والمثقف ثقافة عصرية بالدقة والعلمية التي تتصف بها عنده اللغة الفرنسية خلافاً لما عنده من تصور «تخليفي» عن العربية العامية خاصة .

(٢) ان نطق الأرقام بالفرنسية أمر غير شاق مقارنة بنطق واستعمال الكلمات والعبارات العربية نحواً وصرفا . ومن ثم يصبح استعمال الأرقام باللسان الفرنسي **ميداناً سهلا** وجذابا حتى لغير المتعلم العصري الذي يسعى هو الآخر لتقليد الفرنسي والتقرب منه للتخلص من مركب النقص (لبعده عن المساواة مع المستعمر) الذي يشعر به الانسان المقهور (المَسْتَعمَر) إزاء مستعِمر (قاهره) على العموم .

ومن هذه الخلفية يتضح أن **عدم المساواة** (اختلال ميزان القوى) بين المقَلِد لغوياً (المغربي) والمقَلَد لغوياً (الفرنسي) هو العامل الحاسم في إفراز ظاهرة الفرانكوأراب التي هي عبارة عن محاولةٍ رمزية (لغة وثقافة) لتغيير ميزان القوى والشعور بالتساوي (أو على الأقل القرب من ذلك) **ولو ظاهرياً** مع الطرف الفرنسي المسيطر والمهيمن .

مناقشة الفرض الرابع

إن الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية التي يتعلم فيها الفرد اللغة الثانية (أو الثالثة . .) تحدد مدى استعداده وحساسيته لمزج لغته الأم باللغات الأخرى . وعلى سبيل المثال فبينما تعلم الفرد الاسكندنافي الإنجليزية وذلك لحاجته العملية والعلمية للغة الإنجليزية ذات الشهرة والاستعمال العالميين في الميادين الحيوية لهذا العصر تعلم تلميذ وطالب مجتمعات المغرب العربي الفرنسية في ظل الاستعمار الفرنسي وامتداداته[٨] .

ومن هذا الواقع التاريخي الاستعماري لشعوب شمال افريقيا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين جاء ابتلاء اللغة العربية ـ كأحد ملامح اضطهاد المستعمر للمستعمر ـ . فتمثل الاضطهاد

اللغوي الفرنسي للسان العربي هناك في تقليص مجالات استعمالها في شؤون هذه المجتمعات خاصة في الميادين الحيوية لهذا العصر . **ومن ثم تخلفت العربية تخلف أهلها المستعَمرين في القطاعات المجتمعية الأخرى** .

صحب هذا الواقع اللغوي الاستعماري واقع جديد على مستوى سيكولوجية الإنسان «المغربي» . فبرز عند الجزائري والتونسي والمغربي المتأثر بلغة المستعِمر وثقافته على الخصوص موقف شائع يحقر ـ من جهة ـ اللغة العربية وثقافتها ، ويحترم ويمجد اللسان الفرنسي وثقافته من جهة أخرى . وأول ما يتبادر للذهن في هذا المضمار هو تأثر تركيبة شخصية الإنسان «المغربي» من هذا الواقع اللغوي الثقافي الجديد . ومن ملامح التركيبة النفسية الجديدة للفرد «المغربي» هو ظهور أعراض مركبات النقص إزاء المستعمر الفرنسي ومن ثم أصبح التلهف على تقليده حاجة نفسية عند الإنسان «المغربي» المغلوب .

فالفرانكوأراب كظاهرة لغوية اجتماعية هي بالقطع ظاهرة ذات جذور نفسية **للإنسان «المغربي» المقهور** ، أفرزها الوضع الاستعماري (بما فيه من قهر شامل مس ويمس الجوانب المادية والمعنوية للإنسان «المغربي») . وغياب عامل الاستعمار وما شابهه في تعلم فئات المجتمعات الاسكندنافية للغة الإنجليزية هو في نظرنا أساس ذو مصداقية في تفسير ندرة أو عدم وجود ظاهرة المزج اللغوي (اللغات الاسكندنافية ممزوجة بالإنجليزية) في المجتمع السويدي والدانماركي والنرويجي اليوم .

عوامل استمرار الفرانكوأراب بعد الاستقلال

بادىء ذي بدء لا بد من التأكيد أن حصول الجزائر وتونس والمغرب على الاستقلال لا ينبغي أن يعني اندثار ظاهرة الفرانكوأراب تماما بين عشية وضحاها بهذه المجتمعات ، فظاهرة الفرانكوأراب هذه لم تصبح على ما هي اليوم من انتشار في مجتمعات المغرب العربي المعاصرة إلا بعد زمن غير قصير للاحتلال الفرنسي بها . فقد أقام الفرنسيون بالقطر الجزائري ما بين ١٨٣٠ و١٩٦٢ وفي تونس للفترة ما بين ١٨٨١ ، ١٩٥٦.أما المغرب فقد وقع تحت الاحتلال الفرنسي من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦ ومن ثم فإن أي تقليص لظاهرة المزج اللغوي (الفرانكوأراب) في هذه الأقطار المستقلة لا يمكن أن يحدث بدون أخذ عامل الزمن في الاعتبار خاصة وأن دراسات العلوم الاجتماعية (Ogburn) تؤكد أن عملية التغيير الثقافي (ومنه اللغوي) عملية بطيئة لكن سرعة أو بطء تقلص ظاهرة الفرانكو أراب لا تتأثر بعامل الوقت فقط وإنما أيضا بالعوامل التالية التي تناقشها فيما يلي :

١) إن الاستعمار الثقافي الفرنسي ذو طبيعة شرسة إذا ما قورن بنظيره الإنجليزي (Clavet,1974:84-85) ولقد بلغت شراسته أقصى مداها بالجزائر حيث حاول الاحتلال الفرنسي سلبها لغتها وثقافتها العربية الإسلامية ، ومنه ضرب المقومات الأساسية لشخصيتها القومية . ولعل هذا يفسر جزئيا ـ كما سوف نرى ـ منطق سياسة التعريب الجادة وغير المتذبذبة التي تقوم بها الجزائر بعد الاستقلال ، فمما لا شك فيه إذن أن مجتمعات المغرب العربي قد ورثت زاداً ثقافياً ذا ملمحين :

(أ) الملمح اللغوي : وهي الكلمات والعبارات الفرنسية التي أصبحت وكأنها جزء لا يتجزأ من مفردات وعبارات حديث عامة الناس ، وبالتالي فالمواطن «المغربي» العادي لا يكاد يشعر عند استعمالها بأنها ذات أصل فرنسي ، أما «المغربي» المثقف أو المتخصص فطالما يستعمل عبارات وكلمات فرنسية سواء في مناسبات خاصة (مجال العلوم والتكنولوجيا مثلا) أو عامة ، وهو واعٍ طبعا بأنها فرنسية . وهذا الإرث الاستعماري اللغوي بِنَوْعَيه لا يزال منتشراً في مجتمعات المغرب العربي المستقلة .

فعلى سبيل المثال نجد أن جيل ما بعد الاستقلال بالمجتمع التونسي قد ورث عبارات وكلمات فرنسية استعملها ولا يزال يستعملها جيل ما قبل الاستقلال والقائمة طويلة جدا بهذا الصدد نقتصر على ذكر القليل منها :

الكرطابلة (المحفظة) Le cartable
الستيلو (القلم) Le stylo
ريجلو (تعمل) Régler
الباتوار (المسلخ) L'abattoir
الكار (الحافلة) Le car
الفوسي (الخندق) éLe Fossé
سافا (بخير) ça va

(ب) الملمح الثقافي : تعني بهذا التصور التحقيري للثقافة العربية الذي نجح المستعمر الفرنسي في بثه خاصة بين المتعلمين المتفرنسيين أو مزدوجي اللسان والثقافة (فرنسية وعربية) بالمغرب العربي قبل الاستقلال . إن النظرة التحقيرية للتراث الثقافي العربي لا تزال منتشرة عموماً بين أجيال ما بعد الاستقلال في هذه المجتمعات رغم أن تعليم هذه الأجيال الناشئة اللسان العربي والثقافة العربية أكثر فأكثر خاصة في المرحلة الابتدائية . وهذ التصور التحقيري للثقافة العربية بما فيه اللغة لا يساعد طبعا على توعية المواطن «المغربي» بضرورة استعماله للغة العربية المحكية أو الفصحى . وعلماء الاجتماع المعاصرون وفي طليعتهم اجبرن « Ogburn » متفقون على ان تغيير الجوانب الثقافية «اللغة جزء من الثقافة» للمجتمعات عملية بطيئة ، وذلك حتى في صورة عدم وجود العراقيل في وجه عملية التغيير هذه .

٢) إن استمرار ظاهرة الفرانكو أراب مرتبط إلى حدّ كبير بسياسات التعريب خاصة في مجالات التعليم والإدارة والبيئة (المحيط) بمجتمعات المغرب العربي المعاصرة فنجاح عملية التعريب في هذه الميادين الثلاثة لابد أن يكون له انعكاس إيجابي في التخفيف من ظاهرة الفرانكو أراب في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي ، ويبدو أن عملية التعريب في هذه المجتمعات الثلاثة قد تأثرت بموقف الحكم السياسي الذي بيده القرارات ، وسن القوانين ، واحداث التنظيمات والبرامج اللازمة لتجذير حركة التعريب على مستوى عقلية الفرد ، وعلى مستوى المؤسسات التعليمية والإدارية ، وعلى مستوى البيئة والحياة العامة . وعند النظر الى ملف التعريب بعد الاستقلال في هذه الأقطار الثلاثة نجد أن سياسة التعريب أكثر حماساً وأقل تذبذباً في القطر الجزائري ، ففي كل من تونس والمغرب عرفت

سياسات تعريب التعليم ـ مثلاـ التذبذب والنكوص، فمثلا بينما عُرّبت كل مواد التعليم الابتدائي في تونس بعـد الاستقـلال قرر النظـام الـتر بوي في هذا البلد في سنة ١٩٨١ (تاريخ تخريج أولى الصفوف الابتدائية المعربة تماما) أن لا تستمر عملية التعريب الشاملة للتلميذ التونسي عندما ينتقل إلى المرحلة الثـانـويـة حيث تصبـح الفـرنسيـة فُجأة هي لغـة العلوم والرياضيات . وأثار هذا الحدث ولا يزال يثير مجادلات بين التر بويين والآباء والمعربين حول انعكاسات فرنسة العلوم والرياضيات في المرحلة الثانوية على مستـوى التلميـذ وعلى شخصيتـه وعلى مسـيرة عمليـة التعـريب ككـل بالمجتمع التونسي . أما مشاكل التعريب في المغرب فهي أسوأ مما هي عليه في تونس، فتفيد الدراسات (العرعوزي ، ١٩٨١ : ١٢٥) أن هنـاك تراجعـات عديـدة حتى في تعريب المرحلة الابتدائية وهكذا فظروف التعريب السائدة بالمجتمع التونسي والمغربي تشجع على استمرار المزج اللغوي أو الفرانكو أراب.

أمـا ما يُعـرف عن سيـاسـة التعـريب في الجـزائـر لفـترة ما بعـد الاستقلال فهي سياسة تتصف بالاستمـراريـة وعـدم التـذبذب (العرعوزي ، ١٩٨١ : ١٤٧ ـ ١٥٥) ويَرجع ـ في نظرنا ـ هذا الاتجاه التعـريبي الصـامـد بالقطـر الجـزائري إلى توفر قيادة سياسية أكثر إيمانا بالتعريب من القيادتين التونسية والمغربية. ولعل ذلك يعود في جانب منه إلى التكوين الثقافي نفسه لتلك القيادات، فمثلاً كان التكوين الثقـافي واللغـوي عنـد الـرئيس هواري بومدين (الذي اصبحت في عهده عملية التعريب قضية وطنية ومصـير يـة) تكـوينـاً تغلب عليه ملامح الثقافة العربية الإسلامية التي تعلمها في كل من جامع الزيتونة والأزهر. أما التكوين الثقافي للرئيس بورقيبة والملك الحسن الثاني فهو تكوين مزدوج الثقافة، لكن تسطو عليه الثقافة الفرنسية ـ خاصة ـ عند الرئيس التونسي الذي تلقى دراسته العليا بفرنسا.

ومن ثم أصبحت سيـاسـة التعـريب في عهد بومدين مبدأ من مبادىء الثورة الجزائرية تُركز على أهميتـه بنـود الميثـاق الجـزائري، وهكذا صار من غير السهل لمعارضي ـ وهم بالطبع موجودون ـ سياسة التعريب في المجتمع الجزائري أن يحدثوا أي ارتباك يُذكر أثناء وبعد حكم الرئيس بومدين، وان حماس القيادة الجزائرية الحالية تحت رئاسة الشاذلي بن جديد لقضية التعريب على كل المستويات هو مؤشر هام على أن عملية التعريب مستمرة في الجزائر بدون تردد. ولا يقتصر حماس النظام الجزائري على تعريب قطـاعـات التعريب فحسب بل يشمل أيضا كلاً من قطاع الإدارة والبيئة. فالمجتمع الجزائري قد عرّب تعـريبـاً كامـلا المحيـط الجـزائـري بالمدن الكبيرة والمتوسطة والقرى، فأسماء المؤسسات الوطنية وأسماء الشـوارع الـخ . . . ، أصبحت لا تُكتب إلا باللسـان العـربي . أمـا البيئـة التـونسية والمغربية فلا تزال مزدوجـة اللغـة في أغلب الأحيـان وهذا الواقع التعريبي الشامل للمحيط يجعل المجتمع الجزائري حالة شاذة بين المجتمعات العربية في المشرق والمغرب. وكل هذا يعني أن ظاهرة الفرانكو أراب لابد أن تتأثر سلبـا وإيجـابـا في مجتمعـات المغـرب العربي المعاصرة بموقف الأنظمة الحاكمة من قضايا التحرر الثقافي واللغـوي، وبـالتـالي فمعطيات سياسة التعريب الجزائرية ـ كما رأينا ـ تشجع أكثر مما هو عليه الوضع في كل من تونس والمغرب بخصوص تقلص ظاهرة الفرانكوأراب.

٣) ومن العـوامـل التي تسـاعـد على تقليص المـزج اللغوي بين العربية العامية والفرنسية القيام بحمـلات توعيـة شعبية تهدف إلى توعية المواطن بأهمية تراثه اللغوي والثقافي بالنسبة لشخصيته وانتمائه الحضاري، فوسائل التوعية العصرية موجودة في مجتمعات المغرب العربي من ملصقات وجرائد ومجلات

وإذاعـة وتلفـزيـون، وقـد سُخـرت وتُسخـر هذه الـوسائل في القيام بحملات وقتية أودائمة في مجالات الصحة والمرور والتنظيم العائلي الخ . . . ، في مجتمعات المغرب العربي إلا أنه لا يُعرف شيء يذكر عن حملات التوعية الشعبية في كل من المجتمع التونسي والمغربي بخصوص توعية التونسي والمغربي بأهمية لغتـه وثقـافته، وبالتالي تصفية حديثة من الكلمات والعبارات الفرنسية، والاعتزاز بتراثه الثقافي العربي والإسلامي . ويتفق هذا الوضع الثقافي واللغوي السائد في تونس والمغرب بعد الاستقلال مع مقولة عالم الأجتماع الفرنسي Pierre Bourdieu التي تقول إن النظام (أي نظام تربوي أوثقافي الخ . . .) يحاول دائـما ان يُؤمِّنَ لنفسـه الاستمـراريـة (La Reproduction) . وفي غيـاب حملات التـوعيـة هذه ذهب البعض في كل من المجتمـع التـونسي والمغـربي ـ بعد الملاحظة الميدانية ـ إلى القول بأن ظاهرة الفرانكو أراب قد ازدادت منذ الاستقلال بدل أن تقل وذلك لانتشار قطاع التعليم بعد الاستقلال . أما ما يجري من حملات توعيـة في القطـر الجـزائري بخصوص احترام وأهمية ما يسمونه هنالك باللغة «الوطنية» (أي اللغـة العـربيـة) فهـو أمـر ملمـوس كما أشرنا . وما تعريب المحيط كليةً إلا عملية توعية تعريبية مستمرة للمـواطن الجـزائـري وللأجيـال الشـابـة على الأخص، وكمثال ثانٍ على حملات التوعية اللغوية نذكر المجادلات والمناقشات التي نظمها حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري بين القاعدة والقمة حول اللغة والثقافة العربيتين في سنة ١٩٨٠ـ١٩٨١ باعتبارهما المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري .

٤) من العوامل الاخرى التي لا بدّ أن تلعب دورها في قضية التخفيف من ظاهرة الفرنكوأراب هو هاجس «الانتـماء العـروبي» عنـد مواطن المغـرب العـربي، وبعبـارة أخرى فكلما كان الانتماء العروبي للجزائري والتونسي والمغربي قوياً كلما كان يميل أكثر إلى استعمال اللسان العربي حديثاً وتحريراً .

فملاحظات المشاركين في ندوة مجلة المستقبل العربي عدد ٧٦ لسنة ١٩٨٥ بعنوان الوعي القومي في المغرب العربي تشير إلى أن الوعي القومي العربي ضعيف عموماً بهذه المجتمعات، ولعل مما زاد في تدني الـوعي القـومي العـربي عنـد التـونسي والمغـربي في العصر الحديث هو المصادمات السياسية التي وقعت بين النظـام التـونسي والمغـربي وبين ايديولوجيات الوحدة العربية سواء كانت صادرة من مصر في عهـد عبـد النـاصـر أومن البعثيـين في الشـام أومن ليبيا في الوقت الراهن، بالإضافة إلى كل ذلك فان الفشـل العـربي في الصراع العربي الاسرائيلي وفي الوحدة العربية بالمشرق العربي لا يبعث على تعزيز الانتماء العروبي الحماسي عند مواطن المغرب العربي .

مناقشة الفرض الخامس

يتبـين من منـاقشـة الفـروض الأربعـة السابقة أن ميل «المغربي» إلى مزج عاميته بالفرنسية يتأثر أسـاسـا بطبيعـة العـلاقة التي ربطته وتربطه بالجانب الفرنسي . فقد رأينا في الفرضين الأول والرابع أن أسبـاب لجوء «المغـربي» إلى الفـرانكـوأراب تأثـرت وتتأثـر كثيـراً بعـامـل عدم التوازن في العلاقة بين الطرفين : أي علاقة المسيطِر والمسيطَر عليه .

أما الفرض الثالث فقد أوضح أن الازدواجية اللغوية (كمتغير) لا تؤدي حتما إلى المزج اللغوي .

أما الفرض **الثاني** فقد أفصح أن لجوء «المغربي» إلى استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية لا يرجع دائما إلى فقر عاميته لذلك.

ومن ثم فان ما جاء في هذه الفروض يدل على أن ظاهرة الفرانكوأراب بمجتمعات المغرب العربي ليست مسألة عشوائية أو فوضاوية (كما يمكن أن يبدو للملاحظة مزج العامية المتزايد والمتنوع بالأفعال والأرقام . . .) بالفرنسية. فيبدو أن هناك دلالة في استعمال مختلف هذه الرموز. وقد رأينا **المعنى الخاص** والذي يجعل «المغربي» ينطق الارقام بالفرنسية بدلا من نطقها بعاميته. وهكذا يمكن تصنيف ظاهرة الفرانكوأراب في صنف التصرفات (السلوكيات) الإنسانية التي ترجع أساسا إلى **تقليد الطرف الأقوى** وهو الجانب الفرنسي في هذه الحالة. وعملية التقليد **الرمزية** (الفرانكوأراب) لها انعكاساتها ووظائفها بالنسبة للمقلد.

فمن جهة أكدت بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة (Devos, 1976:350) ، (فضلا عما جاء في إشارات ابن خلدون بهذا الصدد) أن من نتائج **علاقة الغالب بالمغلوب هي** شعور هذا الأخير بمركبات النقص أمام الطرف الغالب. ومن ثم تصبح ظاهرة التكالب على تقليد هذا الأخير **أمراً** طبيعياً. ومن جهة أخرى فإن لجوء «المغربي» للفرانكوأراب تجعله يعتقد أنه يُحسن ولو **ظاهرياً** من وضعيته **النفسية والاجتماعية** إزاء الغالب بتقمصه لرموزه الثقافية وفي مقدمتها الرموز اللغوية. أما عندما يقع **التوازن في ميزان القوى** بين الطرفين (كما هو الحال في **علاقة** المجتمعات الاسكندنافية بالمجتمع الإنجليزي أو الأمريكي) فإن ظاهرة المزج اللغوي تصبح **أساساً** غير واردة عند الجانبين كما سبق ذكره.

سابعاً : الفرانكوأراب كظاهرة يحتاج تفسيرها إلى علوم اجتماعية منبثقة من واقع العالم الثالث

ويتضح من مناقشة الفروض الخمسة السابقة أن **متغير الاستعمار الفرنسي ذو تأثير حاسم في إفراز ظاهرة الفرانكوأراب** بمجتمعات المغرب العربي منذ القرن التاسع عشر، وفي نظرنا أن أي دراسة للفرانكوأراب خالية من تأثيرات عامل الاستعمار كواقع شامل عاشه ولا زال يتأثر برواسبه المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي **هي** في النهاية دراسة قاصرة علمياً ومشوهة لطبيعة الظاهرة المدروسة. فاللغة مهما كانت طبيعتها (ممزوجة أو صافية) **هي** قطعا إفراز وانعكاس للظروف والعوامل المختلفة التي تتأثر بها حياة المجتمع.

ومن هنا يأتي كثير من القصور في تطبيق النظريات الغربية حول ظاهرة المزج اللغوي على ظاهرة **الفرانكوأراب كخصوصية لمجتمعات المغرب العربي** لها خلفيتها التاريخية الاستعمارية التي نسجت بين الطرفين المتفاعلين علاقة مستعمِر بمستعمَر وقوي بضعيف ومتبوع بتابع أو علاقة مهيمِن بمهيمَن عليه أو قاهر بمقهور. فالدراسات الغربية **كالعادة** لا تكاد تذكر عامل الاستعمار عند تحليلها لبعض الظاهرات في مجتمعات العالم الثالث. فمعضلة التخلف في هذه المجتمعات مثلا ترجعها العلوم الاجتماعية الغربية أساساً إلى عوامل ذاتية داخلية لهذه المجتمعات مثل تركيبتها الإجتماعية أو قيمها الثقافية دون أن تقع الإشارة عموما إلى دور عامل الاستعمار الغربي في عملية التخلف هذه. ولا يمكن لمثل هذا النمط من المعرفة أن تكون له المصداقية العلمية. إذ أن هذا الزاد المعرفي المتراكم **يتجاهل عامل الاستعمار**

الحساس الذي أثر ويؤثر في حياة هذه الشعوب قبل استقلالها وبعده، ومن ثم جاء إفلاس النظريات الغربية بخصوص معالجة قضايا التنمية والتخلف بالمجتمعات التابعة.

إن ظاهرة الفرانكوأراب في مجتمعات المغرب العربي لا ينتظر أن تلقى التفسير الشافي فيما كتب إلى حد الآن في الغرب من كتب ودراسات حول ظاهرة المزج اللغوي Code Switching أو Borrowing ، فالحلقة المفقودة في هذا الزاد المعرفي هو مدى تأثير عامل الاستعمار **كيفاً وكماً** في إفراز الخلط اللغوي في مجتمعات العالم الثالث؛ التي سقطت تحت هيمنة الاستعمار الغربي بأشكاله المختلفة. إن اسقاط متغير الاستعمار من معطيات ظاهرة المزج اللغوي هو بالتأكيد ممارسة بحثية لا يمكن وصفها بالروح العلمية. إن إنكار واقع طبيعة الأشياء لا يؤدي إلا إلى تعميمات مشوهة لحقيقتها. فما قيل عن أسباب المزج اللغوي ونوعيته في المجتمعات الغربية لا ينبغي أن يكون هو الأرضية العامة التي تستقي منها كل ما يمكن ان يبحث ويقال عن ظاهرة المزج اللغوي في مجتمعات العالم الثالث. فالظاهرة الإجتماعية هي أساساً إفراز للعوامل **والظروف الخاصة** (Boudon, 1984: 219-20) المحيطة بها أكثر من أن تكون نتيجة للمؤثرات العامة. فالفرانكوأراب كظاهرة لغوية اجتماعية لا يمكن أن تكون إلا كذلك. ومن هنا تأتي الحاجة والشرعية لإرساء علوم اجتماعية منبثقة من واقع مجتمعات الجنوب بكل خصائصها المميزة لها. عند ذلك فقط يمكن أن تخطو المعرفة العلمية إلى الأمام في فهم الجوانب المختلفة لهذه المجتمعات. وبالتالي تتضح الرؤية أكثر أمام المخططين الاجتماعيين الذين يهتمون بقضايا التخلف والتنمية على كل المستويات.

ثامنا : ظاهرة الفرانكوأراب وقانون الغالب والمغلوب لابن خلدون

إن الشعور بالدونية للنفس (تحقير الذات) لدى «المغربي» أمام المستعمر الفرنسي لا بد أن يكون ـ كما أكدنا سابقا ـ سببا مهما في تفسير ظاهرة الفرانكوأراب كمظهر تقليد لغوي وثقافي للغة وثقافة الغالب. ورغم أن ابن خلدون لم يشر إلى ظاهرة التقليد اللغوي بالاسم. إلا أن ما جاء في المقدمة عن أسباب التقليد بين الشعوب لا يستثنى ظاهرة التقليد اللغوي (مثل الفرانكوأراب). فقول صاحب المقدمة «في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته **وسائر أحواله** وعوائده» قانون عام حول ظاهرة التقليد بكل أنواعها ومظاهرها. ويرجع ظاهرة التقليد بين الشعوب وبين الأفراد إلى علاقة عدم التوازن والتساوي بين الغالب والمغلوب «والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد **بالكمال** في من غلبها وانقادت إليه» وهكذا يبدو أن عامل الشعور بالدونية في طلب شخصية الفرد «المغربي» المقهور هو سبب **رئيسي** لتفسير وجود ظاهرة الفرانكوأراب الشائعة في مجتمعات المغرب العربي المعاصرة، وأن انعدام وجود مثل هذا الشعور لدى الفرد الاسكندنافي حيال الإنجليزي والأمريكي أدى إلى غياب أو ندرة المزج اللغوي كظاهرة اجتماعية لغوية في المجتمعات الاسكندنافية. فبينما العلاقة بين المغربي والفرنسي هي علاقة المستعمر بالمستعمر والتابع بالمتبوع فعلاقة الفرد الاسكندنافي بالإنجليزي أو الأمريكي بعيدة على أن تكون كذلك. فظروف (الفرض الرابع) الإنجليزية في المجتمعات الاسكندنافية تختلف عن تلك التي تعلمت فيها الأجيال المغربية الفرنسية. فهذه الأخيرة تعلمها المغاربة من جهة على أنها لغة **الغالب** لغة التقدم والعلم والحداثة[٩] على حساب اللغة العربية التي بدأ

ينظر لها خاصة من طرف النخبة المتعلمة بالفرنسية على أنها لغة التقليد. بينما تعلم الاسكندنافيون الإنجليزية باختيارهم ولأسباب عملية دون أن يمس ذلك لغات هذه المجتمعات بأي نوع مشوب بالدونية. ومن ثم فليس هناك من سبب ذي ثقل لدفعهم إلى مزج لغتهم بالإنجليزية مثلما هو الحال عند «المغاربة».

تاسعا : ظاهرة الفرانكوأراب الانثوية وعلاقة الغالب بالمغلوب

من ملاحظاتنا المتكررة إلى ظاهرة مزج العامية العربية بالفرنسية عند النساء وفتيات مجتمعات المغرب العربي الثلاثة تبين لنا أن الجنس الأنثوي خاصة المتعلم والمثقف منه يخلط عاميته العربية بكلمات وعبارات فرنسية **أكثر**[١٠] من زميله المتعلم والمثقف في هذه **الأقطار** الثلاثة. ولقد كتبنا فعلا دراستين (الذوادي : جذور الفرانكوأراب) عن هذه الظاهرة التي شدت تطلعنا العلمي شداً وبالتالي أولياها هذا الاهتمام الخاص.

فاتضح لنا من هاتين الدراستين أن الميل الأكبر للأنثى المغربية المتعلمة والمثقفة إلى اللجوء إلى الفرنسية ممزوجة بالعامية العربية أو منفردة الاستعمال يرجع أساساً إلى **تحقير مزدوج** تعيشه وتشعر به خاصة متعلمات ومثقفات الجزائر وتونس والمغرب. فهناك من ناحية الشعور **بالدونية** أمام المستعمر الفرنسي : (علاقة الغالب بالمغلوب) التي يشترك فيها الرجال ـ كما رأينا ـ مع النساء في هذه المجتمعات. وهناك من ناحية ثانية شعور المرأة خاصة المتعلمة والمثقفة **بالدونية** مقارنة بنظيرها الرجل الذي تسمح له عقلية **وتركيبة** وتقاليد هذه المجتمعات بلعب أدوار أهم، والقيام بمشاركات ومساهمات أكبر من بنات حواء في حياة نفس المجتمعات. ومن ثم يتمتع الرجل أيضا **بقسط أوفر من الحرية** التي هي من أهم إفرازت التعلم والتثقف خاصة إذا كان غربي النمط. فالدراسة والتعلم في المدارس الغربية أو المتأثرة بالنمط الغربي تغرب من جهة المتعلم والمتعلمة المغربيين عن لغته وثقافته وبالتالي طالما تخلق فيهما شعوراً محقراً لثقافتهما ولغتهما العربية على حساب **الافتخار** بمعرفة لغة وثقافة المستعمر. **ومن ثم** احداث اجهاض في تركيبة ذاتيتهما Identity[١١]. ومن جهة ثانية فإن مثل هذا التكوين الثقافي يضع المرأة «المغربية» ـ خاصة ـ في تناقض غير هين، فهي تريد ـ من ناحية ـ تلبية رغبات العصرية والتحديث بمعناهما الغربي، لكنها من ناحية أخرى تجد نفسها غير قادرة فعلا، لاصطدام ذلك مع قوى وعوامل حضارية، وتقاليد اجتماعية في هذه المجتمعات. ومن هنا اتخذت ظاهرة الفرانكوأراب الانثوية **طابعا خاصا** بها. فاللجوء إلى المزج اللغوي الأكثر (تفرنسا) عند المرأة المغربية والمتعلمة والمثقفة هو حل **تعويضي** لكسب رهان المساواة مع الرجل المتعلم والمثقف المغربي الذي لا زال يتمتع بامتيازات عديدة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي. فالفرنسية كسلاح رمزي عند هؤلاء النساء المغربيات تقوم بوظيفتين لديهن : (١) محاولة الاقتراب من صورة ومكانة الغالب (الفرنسي) وذلك باستعمال لغته، قصد التخلص من الشعور بالدونية أمام الغالب. (٢) إن استعمال الفرنسية هو سلاح رمزي يستعمله الجنس اللطيف **كعملية احتجاج** سلمية على هذه المجتمعات التي لا تزال بها عراقيل كثيرة تقف أمام مساواة الرجل بالمرأة. وبعبارة أخرى فإن نمط الفرانكوأراب **الأنثوية** بالمغرب العربي هو حصيلة «لصنفين من ممارسات القهر التي تتعرض لها ـ خاصة ـ المرأة «المغربية» المتعلمة والمثقفة تعليما وثقافة

عصـريتـين (غـربيتـين) : (١) **القهـر** الناتج عن علاقة المستعمِر بالمستعمَر و(٢) **القهر** الناتج من تقاليد وعقلية مجتمعات المغرب العربي بخصوص معاملات الأنثى المتطلعة إلى ممارسة الحياة العصرية .

عاشراً : الفرانكوأراب كجزء من ظاهرة «التخلف الآخر»

إن ما أطلقنا عليه « بالتخلف الآخر » (الذوادي : **١٩٨٣**) هو ظاهرة تنتشر في كل من مجتمعات الوطن العربي وبقية مجتمعات العالم الثالث، ومع ذلك فهو تخلف لم يلق اهتماماً جديراً بالذكر في أدبيات العلوم الاجتـماعيـة المهتمـة ـ خاصـة ـ بقضـايا التنمية والتخلف بمجتمعات الجنوب . ويمكن تعريف «التخلف الآخر» بأنه أساساً تخلف ذو وجهين : (أ) التخلف الثقافي و(ب) التخلف النفسي .

أما التخلف الثقافي فله ثلاثة ملامح :

١ ـ التخلف اللغوي الذي يتمثل عادة في تخلف استعمال لغة المجتمع الوطنية ، وذلك لانتشار استعمال لغـة أجنبيـة محلهـا في كثـير من الميـادين خاصة العصرية منها ، وإن منافسة اللغة الفرنسية للعربية بمجتمعات المغرب العربي مثال على ذلك .
٢ ـ التخلف الثقـافي الـذي يمس ما يمكن تسميتـه بالـزاد المعـرفي الذاتي (في العلوم الدقيقة والعلوم الإنسـانيـة والاجتـماعيـة على السـواء) لمجتمعـات الوطن العربي ومجتمعات العالم الثالث . ففي العصـر الحـديث أصبحت هذه المجتمعـات تعتمـد الى حد كبير على الزاد المعرفي الغربي في كل هذه العلوم .
٣ ـ التخلف الــذي تعـرضت له قيم هذه المجتمعـات . فاحتكـاك هذه الأخـيرة في العصـر الحـديث بالغـرب **الغـالـب** سمـح بانتشار قيمه بين هذه الشعوب **المغلوبة** خاصة قيم التحديث والعصرية . ومن ثم تلاشت بعض القيم التقليدية من جهة ودخلت من ناحية أخرى بعض القيم في صراع مع القيم الغـربيـة الغـازيـة ، ومن هنـا جاء تصـورنـا للتخلف (للتفقير) على مستوى القيم الأصيلة (الذاتية) لهذه المجتمعات .

وباختصار فإن هذه الأصناف الثلاثة للتخلف الثقافي تمثل في النهاية تفقيراً (تخلفا) لهذه العناصر الثـلاثـة وهي اللغـة والمعـرفـة الثقـافية والعلمية والقيم الثقافية . وكل هذه العناصر هامة جداً في تركيبة ثقافات مجتمعات العالم الثالث .

إن هذه المـلامـح الثـلاثـة للتخلف الثقـافي تحدث بدورها ظاهرة ما أطلقنا عليه أعلاه بالتخلف النفسي . ويأخذ هذا الأخير شكلين :
١ ـ ظاهـرة الشعـور بمـركب النقص لدى شعـوب العالم الثالث إزاء المجتمعات الغربية . ويرجع هذا أساساً في نظرنا إلى تأثيرات ملمحي (١و٢) من التخلف الثقافي المشار اليهما سابقا . ٢ ـ أن النوع الثـالث «٣» من التخلف الثقـافي (التخلف على مستـوى القيم) المـذكور آنفا يمكن أن يؤدي في مجتمعـات الـوطن العـربي والعالم الثالث إلى ما أطلق عليه علماء الاجتماع المعاصرون بالشخصية

المضطربة (disorganized personality) التي يمكن أن تبدو عليها أعراض نفسية مرضية. والجدول التالي يوجز ما ورد في هذه التأملات:

	التخلف الثقافي ـ النفسي (التخلف الآخر)	
ملامح التخلف الثقافي	١ ـ التخلف اللغوي ٢ ـ التخلف المعرفي ـ الثقافي ٣ ـ التخلف على مستوى القيم	١ ـ الشعور بمركب النقص ازاء الغالب (الغرب) ٢ ـ الشخصية المضطربة وأعراض نفسية مريضة
		ملامح التخلف النفسي

حادي عشر : الباحثون « المغربيون » وظاهرة الفرانكوأراب

إن ظاهرة الفرانكوأراب كما وصفناها هنا وفي أماكن أخرى هي جزء من ظاهرة «التخلف الآخر» الكبرى التي ابتليت بها معظم شعوب العالم الثالث في العصر الحديث، فهي إلى حد كبير إفرازة لغوية اجتماعية ملتصقة بظاهرة الاستعمار الفرنسي، وما لذلك من تأثير قهري مادياً ومعنوياً في هذه المجتمعات. ومن ثم فهي بعيدة ان تكون ظاهرة تقدم بحت كما يتخيل العديد من (الفرانكوأرابيين). ومن هذا التصور يمكن فهم أسباب إهمال دراستها من طرف الباحثين «المغربيين» كعرض من أعراض التخلف لمجتمعاتهم. فعدم بحثهم للفرانكوأراب كظاهرة تخلفية[١٢] (لا تقدمية) هو إذن أمر منتظر لا غرابة فيه في مناخ التبعية الثقافية الفرنسية. إن صمت الباحثين الاجتماعيين المغربيين على دراسة هذه الظاهرة (كملمح تخلف لا تقدم) يرجع في حد ذاته إلى عامل القهر الثقافي الذي يعاني منه كثير من المثقفين المتفرنسين (والفرانكوأرابيين). فالتكوين الثقافي لهؤلاء طالما تطغى فيه الثقافة واللغة الفرنسية على اللسان العربي وثقافته. ومن ثم تتشوه رؤى هؤلاء الباحثين في اختيار موضوع البحث والكشف عن عمق طبيعته... الخ.

ومهما كانت أسباب صمتهم عن دراسة الفرانكوأراب من الوجهة التي تطرق إليها هذا البحث فإن هناك تساؤلات لا بد من إثارتها في هذا الصدد. لقد تبين أن **الفرانكوأراب** نوعان: صنف ذكرى والآخر أنثوي. وليست هناك دراسات معروفة لدى الباحثين المغربيين قامت بهذا التمييز بخصوص المزج اللغوي في مجتمعاتهم. وإذا كانوا فعلا لم يلاحظوا هذه الثنائية الذكرية/الأنثوية للفرانكوأراب، فذلك يدعونا إلى التشكك في مدى اعتمادهم على الملاحظة الإجتماعية الموضوعية كمبدأ أساسي وأداة هامة لمنهجية الباحث الاجتماعي. ومن المتوقع أن الباحث

الإجتماعي قد يضل في دراسته إما لأنه ترك جانباً واقع مجتمعه الاجتماعي أو لأنه كان فاقداً لرهافة الحس والجس في الملاحظة الإجتماعية. فالهروب من معطيات الواقع الإجتماعي هو سبب رئيسي لفقر النظريات الإجتماعية ـ فضلا عن غيابها ـ للمفكرين في القديم والحديث. إن الذي جعل المفكر العربي ابن خلدون يتفوق على من سبقه مثل أفلاطون والفارابي هو التزامه بالواقع الاجتماعي العربي كنقطة انطلاقة في كل تنظيراته حول العصبية والدين والحكم والبدو والحضر ونشأة وسقوط الحضارات (شريط : ١٩٧٥) . ومن ثم جاء تفكيره مصيباً لا لفهم المجتمع العربي في زمانه فحسب، بل ان تنظيراته لا تزال أصلح ما هو موجود من فكر اجتماعي عربي لفهم المجتمع العربي اليوم في عديد من جوانبه.

وإذا كانوا قد لاحظوها (أي ظاهرة الفرانكوأراب بثنائيتها وملامحها التخليفية) ولم يندفعوا الى دراستها فالأمر يثير أيضا عدة تساؤلات للاجتماعيين «المغربيين» هل أهملوا الاعتناء بها وإلقاء الضوء عليها لأن في كشف طبيعتها الاستعمارية والتخلفية تصادماً، خاصة مع الرأي العام السائد، الذي لا يزال يرى ـ لغياب التوعية من طرف الحكام والمثقفين ـ في استعمال الفرنسية (مزجاً مع العربية أو على انفراد) مؤشر تقدم لا تأخر؟ وإذا كانت الإجابة بنعم على هذا التساؤل فإن الباحثين الاجتماعيين «المغربيين» مدعوون باسم العلم والموضوعية إلى تعمق أكبر، خاصة في دراسة الظواهر ذات الحساسية الشخصية والاجتماعية (Balandier, 1976: 251-264) لأنهم إذا تحاشوا دراسة ظاهرة الفرانكوأراب **كملمح تخلفي** وذلك خوفا فقط من إثارة الحساسيات الإجتماعية، التي لا شك أنها موجودة خاصة عند كثير من الفئات البرجوازية المتغربة، فإن تقاليد معايير العلمية والموضوعية في دراسة الظواهر الاجتماعية تكون قد صوبت إليها ضربة جارحة. وبهذا تكون الروح العلمية قد سلبت أعزّ أسسها (الحرية والموضوعية) وذلك لأستمرار تأثيرات القهر الاستعماري على الإنسان «المغربي» عالما كان أو باحثا أو حاكما أو محكوما. وضحية هذه المعطيات جميعا تتمثل في عرقلة تقدم المعرفة الاجتماعية من جهة وإمكانية استعمالها لكسب المعركة ضد التخلف بكل مظاهره **المعنوية والمادية** من جهة أخرى.

الهوامش

(١) « المغربي » أو «المغربية» وما تفرع عنهما تعني سكان المغرب العربي (الجزائر وتونس والمغرب) .

(٢) وهو ما يطلق عليه بالإنجليزية Code Switching .

(٣) أنظر إحدى الدراسات الغربية النادرة حول علاقة عامل الأنوثة بالميل إلى المزج اللغوي :
"Sex, Covertprestige and linguistic change in the Urban British English of Norwich". By P. Trudgill in **Language in Society,** vol.I.no. 2 ,Oct. 1872, pp.179-194.

(٤) أنظر مقال "Sex, Drugs, and the Exhnchin of Dinosaurs" للعالم S.J. Gould في مجلة، Discover magazine, March, 84. p.67 (U.S.A)

(٥) (أ) نادراً أن تتأثر الثقافتان ببعضهما البعض **بالتساوي** .
(ب) إن الطرف التابع (المغلوب) هو الذي يميل إلى تقبل أو تبني العناصر الثقافية للطرف المهيمن (الغالب).
(جـ) إن رغبة الفرد او الجماعة لتحسين المكانة الاجتماعية عامل مهم في تفسير ظاهرة التقليد بين المجتمعات والثقافات.

(٦) إن عملية التعريب تبدو متذبذة في كل من تونس والمغرب، ويساعد هذا بالطبع على استمرارية ظاهرة الفرانكوأراب وتفشيها الأوسع بين فئات هذين المجتمعين. لقد لاحظ أحد الأساتذة التونسيين (د. هشام جعيط) في ندوة حول التعريب (١٩٨١) أنه رغم تعريب التعليم أكثر فأكثر بالمجتمع إلا أن ذلك لم **يقترن** عند طلبة الجامعة التونسية بتبلور ذاتية عربية واضحة المعالم عندهم. وليس من المستبعد أن يعزى ذلك إلى عاملين (١) التأثير الاستعماري على زعزعة الذاتية وخدشها (بالوسائل الثقافية وغيرها) لا زال موجودا في فترة ما بعد الاستقلال. (٢) إن ايديولوجية الحكومات التونسية الى حد الآن لا زالت متذبذة بخصوص انتساب تونس العربي.

(٧) تذكرني هذه بحادثة بمسرح قرطاج بتونس في صيف ١٩٧٤. كانت السهرة مع فرقة للدبكة اللبنانية. وفي فترة الاستراحة تحدث شخص في مضخم الصوت ليعلن أن أحد الحاضرين قد أضاع مفتاح سيارته. وكان يتكلم بالعامية التونسية. وعند وصوله إلى رقم رخصة السياقة قرأه **بالفرنسية** !

(٨) على مستوى **التحرر الثقافي** من الاستعمار الفرنسي فليس هناك ايديولوجية **رسمية** واضحة في كل من المجتمع التونسي والمغربي.

(٩) انظر فصل "On language and Translation" من كتاب The Muslim Discovery of Europe, by B. Lewis, W.W.Norton & Company, New York, 1982, p.81.
فالمؤلف يبين أن المسلمين كانوا غير مهتمين بتعلم اللغات الأوروبية على العموم نظراً **لتفوقهم** على الأوروبيين قبل القرن السادس عشر. وكان ينظر آنذاك إلى **المسلم** المتعلم للغات الأوروبية **بحقارة**، **وهو عكس** ما هو شائع اليوم بين مسلمي وعرب العصور الحديثة الذين أصبحوا فيها الطرف الأدنى والمستعمَر والمهيمَن عليه. وهذا ما حاولت أن تؤكده هذه الدراسة.

(١٠) أنظر ما جاء في دراسة
"Fex, Covert Preshge and Linguistic Change in The Urban British English of Norwith" by Peter Trudill in **Language in Society.** op.
من ملاحظات تنطبق إلى حد كبير على السلوك اللغوي للمغربيات المشار إليه هنا :
"Men in our Society can be rated socially bu their occupation their earning pourer, and perhaps by thier other abilities - in other words by what they do. For the most part, however, this is not possible for women. It may be, therefore, that they instead to be rated on how the appear. Since they are not rated by their occupation or by their occupational success, other signals of states, including speech, are correspondingly more important", P.183.

(١١) أنظر مقال "Etre Jeune au Maghreb" بجريدة Le Monde **الاسبوعية** بتاريخ ٨٤/٨/١. أنظر أيضا التأملات الواردة في خلاصة الكتاب التالي: Arabisalion et politique linguistique au Maghreb/G. Grandguillaume Maisonneuve et Larose, Paris, 1983, pp.157-161.

(١٢) أنظر مثلا «**الدليل البليوغرافي**» لمنشورات مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس ١٩٦٤ ـ ١٩٧٩ حيث لا يبدو ان هناك دراسات تطرقت بصراحة لظاهرة الفرانكوأراب كملمح استعماري.

المراجع العربية

ابن خلدون، عبد الرحمن **المقدمة**، كتاب الشعب، القاهرة: ١٩٧٠م.

الذوادي ، محمود
- «التخلف الاخر في المغرب العربي» **مجلة المستقبل العربي**، عدد ٤٧ ، يناير ١٩٨٣م .
- « جذور الفرانكوأراب الأنثوية بالمغرب العربي » **مجلة شئون عربية** ، عدد ٢٢ ، ديسمبر ١٩٨٢ .

زكـي ، أحمـد
معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت : مكتبة لبنان : ١٩٧٨م .

شريط ، عبدالله
الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون، الجزائر ، الشركة الوطنية للتوزيع : ١٩٧٥م .

العرعوزي ، أحمد
«الأبعاد الاجتماعية والسياسية للتعريب في المغرب العربي» **مجلة شئون عربية**، عدد ٧ سبتمبر ١٩٨١م .

مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية
الدليل الببليوغرافي، تونس : ١٩٦٤ - ١٩٧٩م.